فلسفة التربيـــة

كما يراها فيلسوف الغرب

للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ٤ —

جولة في أغراض التربية

أوردت لك فيما سبق تفسير الفلسفة للتربية، وكشفت عما بينهما من علاقة، وأبنت ضرورة الأولى للثانية، ثم تناولت الثانية ذاتها ببعض الشرح والتحديد. وأحب اليوم أن أجول بك في « أغراض » هذه « العملية الكبرى » التي اصطلحنا على تسميتها بالتربية والتعليم!

لِمَ يتعلم الناس؟ وفيم تقام لهم هذه المدارس وتلك الجامعات التي تنفق فيها الجهود الطائلة والأموال الجسيمة؟ أظنك قد أصبحت ترى معي أن من حق الفلسفة بل من واجبها أن تناقش ما عسى أن يكون لهذه « العملية الكبرى » من أغراض، علها تستطيع أن تهدينا إلى « الغرض الأسمى »!

والحق أنه إن لم يكن للتربية غرض واضح محدود صريح فإن عمليتها لا تعدو أن تكون ضرباً في الهواء مصيره الفشل المحتوم!؛ ولما كانت حياة « الأفراد » على ظهر الأرض واحدة لا رجعة لها ولا تكرار؛ ولما كانت « التربية » هي الأداة التي تعدنا لهذه الحياة الواحدة القصيرة، فإنه لا شك في ضرورة « إيجاد » ذلك « الغرض الأسمى » الذي نستطيع به — وبه وحده — أن نستغل « العمر » إلى أبعد حدود الاستغلال، وأن نتمتع به إلى أقصى وأرفع حدود التمتع

ولكنك تعلم أن الفلسفة حينما تعرض لمثل هذا « المشكل » لا تستطيع أن تنجو من ذلك « التباين » الهائل الذي يبدو في أغلب مذاهبها

يقول الأستاذ بولزن Paulsen في أسلوب عذب رشيق[1] « يريد المرء أن يلعب ويتعلم، وأن يعمل ويكتسب، وأن يملك وينعم، وأن يُكون ويخلق، وأن يُحب ويعجب، وأن يطيع ويحكم، وأن يجاهد ويفوز، وأن يردد الشعر ويحلم، وأن يفكر ويبحث وأن يجرب علاقة الابن بأبيه، والتلميذ بأستاذه، والخادم بسيده، وأن يعيش قنوعاً، أخا بين أخوة، وصديقاً بين أصدقاء، وزميلاً بين زملاء، ومواطناً بين مواطنين، وحبيباً وعدواً، وزوجاً ووالداً ومربياً؛ كل ذلك على نحو طبيعي خاص؛ فإذا ما تحقق له ذلك شعر أن حياته قد كملت، وانتظر النهاية الأخيرة برضا وارتياح، لأنه سيلحق بعدها بآبائه وأجداده. »[1]

وأنت ترى أن ذلك الغرض طويل غير مجمل وإن كان صحيحاً في كل أجزائه، وأنه يرمي إلى تكوين الفرد الاجتماعي الناجح السعيد.

ويقول فيخته Fichte[2] « إن غرض التربية هو تكوين الوطني العارف بحقوق الوطن وواجباته ». ولكن من ذا يستطيع أن يحصر الحياة في دائرة الوطنية فحسب؟ أليست الوطنية إحدى نواحي الحياة الشاملة الفسيحة؟

ويقول هربارت[3] « إن غرض التربية هو تكوين إنسان عارف بحقوق الإنسانية؛ وإن غايتها القصوى هي اكتساب الفضائل والتحلي بمكارم الأخلاق ». ولكن ترى ماهي حقوق الإنسانية التي يتركها لنا هربارت غامضة من غير ما تفسير؟ وإذا كانت الأخلاق هي غاية التربية القصوى، فأين يقع « التفكير الخالص » من هذه الغاية وقد وضعه « ارسطو » فوق جميع الغايات عند ماينصب على أسمى موضوعات التفكير وهو الله؟

ويقول ديوي Dewey « إن غرض التربية الأسمى هو النمو[4] » ولكن ما معنى النمو وما مقياسه المضبوط؟ يلمس « ديوي » بنفسه ذلك الغموض ويرسم لنا مثلا أعلى « للإنسان النامي » فإذا هو « كائن ذو عادات بصيرة حساسة بعيدة النظر خاضعة لمسئوليات أكثر ». وذلك قول جامع ولكنه لايخلو مع ذلك من غموض ...

ويقول الأستاذ ريدجر Ruediger[5] « تلائم التربية بين

(١) أنظر A Louree Book of The Philos. of Educ at, on فصل أغراض التربية by Kilpatrich

(١) قد تصرفنا في الترجمة قليلا

(٢) أنظر كتاب الأستاذ العروسي في التربية والتعليم

(٣) أنظر كتاب الأستاذ العروسي أيضاً

(٤) أنظر مقالة في فلسفة التربية بدائرة معارف منرو للتربية

(٥) أنظر كتابه The Principles of Education

الفرد وبين عناصر البيئة المعترف بها فى الحياة الحديثة ، وهى تعمل على تنمية وترتيب وتدريب قواه حتى تصبح ذات «فاعلية» مشروعة النفع » وذلك أيضاً قول دقيق لولا ما قد ينتاب « هذه الملاءمة » من القضاء على روح الثورة فى الناشئ . تلك الثورة التى نريدها منه كلما رأى ماهو جدير بها فى حياة المجتمع

ويقول الأستاذ تورندايك « إن أقصى غايات التربية هو غرس رغبة « الخير » وتكوين القدرة على الحياة السعيدة والمتعة النبيلة البريئة » ولكن ترى ماهى الحياة السعيدة ذات المتعة النبيلة البريئة ؟ أما نحتاج هنا لتحديدها ؟

أما « سبنسر » فيلسوف التطور فيقول « إن غاية التربية هي أولا وقبل كل شئ حفظ الحياة » . ولكن من الثابت الواضح أن « حفظ الحياة » وسيلة وليس بغاية ؛ إذ فى سبيل أى شئ نحفظها ؟ يقول سبنسر نفسه : « إن واجب التربية هو الاعداد للحياة بأوسع معانيها . وأهم مافى الحياة هو الحكم الصائب فى كل الاتجاهات وجميع الظروف ، ثم تربية الجسم والعقل ، ثم الإعداد للعائلة والسعادة والوطن وخدمة المجتمع » وذلك كلام له وجاهته الخاصة دون ماشك . ولكن ألسنا نرى فيه إغفالا أو شبه إغفال لناحية الشعور بما فيه الدين ؟

ويبسط لنا الأستاذ ريدجر Ruediger غرض الملاءمة الآنف فى فصل طريف فحواه الحياة بالعقل والروح ثم بالجسد فى جو خلق دائب التجدد ، يقوم فيه الدين إلى جانب الفن ، ويتسلط فيه الإنسان تسلطاً عاقلاً على البيئة ، شاعراً أنها وطنه الذى يجد فيه المتعة العقلية والفنية ، منتفعاً فى نفس الوقت بكل مافيها مما يفهمه ويقدره

أما الأستاذ Angel فيقول إن غرض التربية « هو النمو المتشابه لقوى الفرد » وذلك قول له طرافة من الناحية النفسية التى تطالبنا بإيجاد التوازن بين قوانا بحيث لا يطغى فيها العقل على العاطفة ، أو العاطفة على العقل [1] ، ولكنه لايزال بعد مفتقراً إلى « تشريع » يوجه هذا النمو المتشابه فى نواحيه المنشودة

وأما أبناء العم سام فاغراض التربية عندهم هى :

(١) عضوية الأسرة الناجحة (٢) المهنة الموفقة (٣) الفراغ المتع (٤) التمدن العاقل (٥) الصحة الحسنة (٦) المعاملات الطيبة

ولكن واضح أن ذلك المستوى شعبى بحت لا يتناول « الفكر الراقى » كما ينبغى أن يتناوله

* * *

وتلك كما ترى آراء كثيرة توسع من مدى فكرنا وإن كانت لا تقف به عند رأى حازم جازم لأن طبيعة « الغاية الأخيرة » ذاتها تتطلب ذلك الخلاف ما دام أن الأفراد أنفسهم هم الذين يتناولونها بالبسط والتحديد لأنها غايتهم . ويشعر الأستاذ ديوى Dewey نفسه بصعوبة الموقف فيقول : « ليس للتربية غاية أو غرض خاص ، ولذلك يجب أن نأخذ فى حسابنا نشاط من يراد تعليمهم وحاجاتهم الطبيعية والاكتسابية عند ما نحدد للتربية والتعليم أغراضهما »

ويعقب الأستاذ يعقوب فام على هذا الرأى بقوله [1] : « ليس التعليم منفصلاً عن الحياة حتى يقال إنه وسيلة لها ، بل هو والحياة أمر واحد » ومعنى ذلك أن غاية التربية هى هى غاية الحياة . فترى ماذا عسى أن تكون تلك الغاية ؟ أهى ذلك الثالوث الأقدس الذى ينادى به الأستاذ فيكتور كوزن فى كتابه الطريف [2] ثالوث الخير والحق والجمال ؟ أم هى « التفكير الخالص » فى أسمى موضوعات التفكير كما يقول أرسطو ؟

ومهما يكن من شىء فإن الأستاذ « ديوى » يعطينا مقياساً طريفاً نطبقه على الأغراض « المطروحة » لنختبرها به وهو : (١) قيام الغرض على الظروف الراهنة (٢) وقدرته على القيادة والمرونة (٣) والاتفاق التام بينه وبين الوسيلة . ثم هو يعطينا مقياساً آخر نقيس به مواد الدراسة هو « درجة وطريقة ماتجلبه على الطالب من شعور ببيئته الاجتماعية ، وما تمده من قدرة يفسر بها قواه الخاصة من ناحية قابليتها لخدمة المجتمع » ويفسر لنا الأستاذ « باجلى » مدى هذه « القابلية » بقوله : « إنها تتضمن أن يكون المرء فاعلاً فى المجتمع منتجاً أو مرشداً الناس إلى الإنتاج ، متدخلاً فى مجهودات الآخرين بأخلاقه الصالحة ، عاملاً على تكميل القوى الاجتماعية أى إنجاح الجماعة » ويعزز الأستاذ ديوى نفسه ذلك الرأى بقوله : « أعتقد أن كل تربية يجب أن ترمى إلى مشاركة الفرد فى الوجدان الاجتماعى »

(١) فى غير النواحى الخلقية بالطبع

(١) انظر « التربية والأخلاق » للأستاذ

(٢) انظر « V. Lonsin - Du Bien, Du Vei, et du Beau »

ولا بأس من أن نختم هذا الفصل بقول الأستاذ Kerschensteiner [1] وهو : « أننا لا نستطيع أن نحصر أغراض التربية فى غرض واحد ، وكل ما هنالك أن التربية يجب أن تشمل الإبقاء على الماضى إبقاء لا يسترعيوبه ولا يعمينا عن خيرات الحاضر ، ثم الوقوف على الأزمنة والبيئات والطبقات المختلفة حتى نوسع من مدى اتصال الناس بعضهم ببعض ، ثم تمدين ومحو الوحشية من بينهم ، أى انتشال العقول من الأودية المظلمة ، والعواطف من الغرائز الحيوانية ، ثم غربلة الناشئين وتوجيه كل منهم إلى الطريق الذى يتفق وميوله الخاصة حتى يبلغ أقصى ماهو كفء له ، ثم غرس العادات الحسنة من غير استعباد الناشئ لها »

* * *

وبعد ، فماذا تريد أن أقول ؟ وأى الأغراض تحب أن أزجيها إليك ؟

أليس من الخير أن نترك هذا الباب مفتوحاً لرجال التربية فى الشرق ، كيما يدلوا فيه بآرائهم السديدة ، ويرسموا لنا تلك « الغاية الأخيرة » التى يجب أن ينشدها الشرق فى تربيته على الخصوص ؟

ثم أنت ترى المعاهد فى مصر كثيرة والخريجين أكثر ، فهل تستطيع أن تتبين وراء تلك المعاهد « غرضاً واضحاً محدوداً » وهل تستطيع أن تتلمس « الطريقة » التى يحقق بها هذا الغرض وما عسى أن يكون فيها من ضعف وقوة ؟

أحب أن تفكر فى هذا قليلا . لا ، بل كثيراً

« شبرا »

محمد حسن ظاظا
مدرس الفلسفة بالمدارس الثانوية

(١) أنظر كتاب Thomson - Amodern Philos. of Ed.

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الألمانى فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

الرؤى والألغاز

— ١ —

وعند ما تناقل البحارة خبر وجود زارا بينهم وكان بلغهم ذلك من رجل دخل السفينة معه قادماً من الجزر السعيدة ساد الجميع شىء من القلق وباتوا يتوقعون حدثاً فى وجوده ، غير أن زارا بقى يومين جامداً تساوره أحزانه ؛ تحدق فيه الأنظار فلا يلتفت ، وتوجه إليه الأسئلة فلا يجيب . وأخيراً أصغى لما يقال حوله متوقعاً سماع أبحاث لها خطورتها تدور على هذه السفينة القادمة من بعيد والمتجهة إلى أماكن سحيقة . وما كان زارا لينفر من الأسفار البعيدة ومن الأخطار ، وبعد أن أصغى طويلاً حلت عقدة لسانه فانطلق يقول :

— إليكم أيها الشذاذ الجريئون أياً كنتم ، أيها المستسلمون للشراع الغدار على هائجات الأمواج

إليكم أيها المثملون بخمرة الأسرار ، المنجذبون بين خيوط الظلمات والأنوار ، إلى نغمات كل شبابة تنوح فى المجاهل الخفية . إنكم تنفرون من تلمس طريقكم بيد مرتجفة على ما نصب من دليلات الحبال إذ تفضلون الإدراك بالحس على الادراك بالإستقراء

إليكم دون سواكم أوجه الخطاب لأخبر بما تجلى من ألغاز وبما خطر من رؤى لأشد الناس استغراقاً فى عزلته .

لقد اجتزت النسق فى أشد فتراته وجوماً . اقتحمته وقد تقلصت شفتاى وعلا وجهى الاغبرار وكنت شاهدت من قبل شموساً كثيرة تجنح إلى الغروب

رأيت أمامى طريقاً يتسلل على جروف المرتفعات ، طريقاً وعراً تعزى جانباه من كل نبات فدفعت عليه أقدامى المحداء فأسمع صريف حصاه تحتها .